أين ملوك الأرض ؟

١٩ عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« يَقْبِضُ[١] الله الأرضَ ، ويَطْوى[٢] السَّماءَ بِيَمينِه.

ثُمَّ يقولُ : أنَا الملِكُ ، أَيْنَ مُلوكُ الأَرْضِ ؟ »[٣]

يقول الحق سبحانه :

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ (غافر)

---

(١) يقبض الله الأرض : يجمعها . وقبضت الشيء تقبيضًا : جمعته وزويته . وقبضت الشيء : أخذته . (لسان العرب ـ مادة : قبض).

(٢)الطيُّ : إدراج بعض الشيء فى بعضه ، ضد النشر . وطوى الشيء : ثناه ولَمَّ أجزاءه . (القاموس القويم ١/ ٤١١).

(٣) وعن عبد الله بن عمر قال . قال رسول الله ﷺ : « يطوى الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ».

أخرجه مسلم فى صحيحه (٤/ ٢١٤٨) وأبو داود فى سننه (٤/ ٤٧٣٢) وابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١/ ٥٤٧).

وفى رواية عن ابن عمر موقوفاً عليه : « إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة جمع السماوات السبع والأرضين فى قبضة ، ثم يقول : أنا الله ، أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا القدوس ، أنا =

لا بُدَّ أن نعرف أنه سيأتى يوم لا تكون فيه أىُّ ملكية لأىِّ أحد إلا الله، وهو المالك الوحيد.

والحق سبحانه يقول :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ (آل عمران)

إن قول الحق « مالك الملك » يُوضِّح لنا أن ملكية الله ـ وهى الدائمة والقادرة ـ واضحة وجلية ومُؤكَّدة.

ولو قال الله فى وصف ذاته «ملك الملوك» لكان معنى ذلك أن هناك بشراً يملكون بجانب الله.

لا ،إنه الحق وحده ، مالك الملك.

وما دام الله هو مالك الملك ، فإنه يهبه لمن يشاء ، وينزعه مِمَّنْ يشاء.

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ (التوبة)

ومادة الـ (م.ل.ك) يأتى منها «مالك» و«ملْك» . ومنها «ملكوت».

= السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تَكُ شيئًا ، أنا الذى أعيدها . أين الملوك ؟ أين الجبابرة ؟ ».

أخرجه أبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى فى كتاب الأسماء والصفات والخطيب وابن النجار . انظر جامع الأحاديث القدسية (٥٥١).

و «المُلْك» هو ما تملكه أنت فى حيِّزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومَنْ معك ويملك غيرك ، فهذا هو « المَلِك».

أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان ، أى الذى يدخل فى سياسته وتدبيره ، فاسمه مُلك ، فشيخ القبيلة له مُلْك ، وعمدة القرية له مُلْك ، وحاكم الأمة له مُلْك ، ويكون فى الأمور الظاهرة .

أما الملكوت فهو ما لله فى كونه من أسرار خفية.

والحق سبحانه يُبيِّن لنا أنه سبحانه وحده الذى بيده الملك ، فيقول :

﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... ﴿٢٦﴾** ﴾ (آل عمران)

فهو سبحانه مالك الملوك ، وإنْ كان هناك فى الدنيا ملوك قد مَلَّكهم الله بعض الأمور فى الدنيا ، فإنه لا ملك ولا سلطان ولا حاكم فى الآخرة إلا الله.

قال تعالى :

﴿ **لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾** ﴾ (غافر)

فالخَلْق كلهم مقهورون يوم القيامة ، ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً فى الدُّنيا لم يَعُدْ مالكاً لشىء .

فربُّنا سبحانه وتعالى ـ فى دنيا الأسباب ـ جعل لكل واحد منَّا مِلْكاً، وجعل لبعض علينا مُلْكاً ، فأصبحوا ملوكاً ، لكن فى الآخرة لا يوجد شىء من هذا.

ففى الدنيا قد تملك مثلاً أن تُوظِّفنى عندك وتعطينى أجراً ، وقد تملك أنْ تطبخ لى طعامى أو تعطينى طعاماً ، أو تملك أنْ تخيط جلبابى.

لكن فى الآخرة لا يملك أحد لأحد سبباً ، لأننا نحيا فى الدنيا بالأسباب التى منحنا الله إياها ، وفى الآخرة بالمسبِّب وحده دون أسباب.

وحين تتسلسل الأسباب التى نحيا بها سنرجع للحق سبحانه وتعالى ، فحين تنتهى يد المخلوق وأسبابه تضيق به ، فإن يَدَ الخالق جَلَّتْ قدرته مبسوطة إليه دائماً ، وإياك أن تغرَّك الأسباب ، ولكن سَلْسِلِ الأسباب إلى أن تنتهى إلى الله.

وسبحانه قد وضع دنيانا موضعها ، وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلْك. ولكن نقول لكل ملك : إن هذا الملك ليس بذاتك ، لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا الملك أبداً.

وسبحانه القائل :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ (آل عمران)

إذن : فليس هناك مَنْ له المُلْك بذاته إلا الله.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

(آل عمران)

فالحق سبحانه جاء بالقوسين ـ السماوات والأرض ـ لأن السماء تظل، والأرض تُقِلُّ[1]، فكل منا محصور بين مملوكين لله ، وما دام كل منا محصوراً بين مملوكين لله ، فأين تذهبون ؟

---

(١) والأرض تُقِلُّ : أى تحمل وترفع ما عليها . يُقال : أقل الشىء يُقله واستقله يستقله ، إذا رفعه وحمله . (لسان العرب ـ مادة : قلل).

وقد يكون هناك الملك الذى لا قدرة له أن يحكم ، فيوضح سبحانه : لا ، إن لله الملك ، وله القدرة .

فالسماء والأرض هما طرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج [1] وكواكب وشمس وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان.

فالأرض وهى المُلْك الأسفل الذى نراه ، وما فيه من أقوات[2] وحيوان وإنسان.

والسماء وما تحتوى وتضُمُّ من الملكوت الأعلى ، هما جميعاً لله مِلْكاً ومُلْكاً، فهو ـ سبحانه ـ الذى يملك كل شىء ، ويملك كذلك المالك للشىء .

فليس كل مالك مَلِكاً ، لأن الملك هو الذى يملك المالك ، وهذه سنن الكون ، وفى الآخرة هناك مالك واحد ، هو مالك يوم الدين.

فالله تبارك وتعالى وصف نفسه فى القرآن الكريم بأنه :

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة)

ومالك الشىء هو المتصرف فيه وحده ، ليس هناك دَخْل لأىِّ فرد آخر ، أنا أملك عباءتى ، وأملك متاعى ، وأملك منزلى ، وأنا المتصرف فى هذا كله ، أحكم فيه بما أراه .

---

(١) الأبراج : جمع بُرج ، وهو واحد من بروج الفلك ، وهى اثنا عشر برجًا ، والجمع أبراج وبروج ، وقال أبو إسحاق فى قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ ﴾ (البروج) قيل : ذات الكواكب . وقيل : ذات القصور فى السماء . (لسان العرب ـ مادة : برج).

(٢) الأقوات : جمع قوت ، وهو ما يقوم به الإنسان من طعام .

فمالك يوم الدين [1]، معناها أن الله سبحانه وتعالى سيُصرِّف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب ، وأن كل شىء سيأتى من الله مباشرة ، دون أن يستطيع أحد أن يتدخل ، ولو ظاهراً.

ففى الدنيا يعطى الله المُلْك ظاهراً لبعض الناس ، ولكن فى يوم القيامة ليس هناك ظاهر ، فالأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى .

ولذلك يقول الله تعالى فى وصف يوم الدين :

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ ﴾ (الانفطار)

فكأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان فى الدنيا لتمضى به الحياة ، ولكن فى الآخرة لا توجد أسباب.

وهنا نتساءل : هل المُلْك فى الدنيا والآخرة ليس لله ؟

نقول : الأمر فى كل وقت لله ، ولكن الله تبارك وتعالى استخلف بعض خَلْقه أو مَكَّنهم من المُلْك فى الأرض.

ولذلك نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

---

(١) الدين : الجزاء والحساب . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة) ، معناه : مالك يوم الجزاء . والدين أيضًا : الطاعة. والدين : الجزاء والمكافأة . ودنْته بفعله دينًا : جزيته. وفى المثل : كما تدين تُدان. أى : كما تُجازِى تُجازَى. أى : تُجازى بفعلك وبحسب ما عملت . (لسان العرب ـ مادة : دين) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ[1] إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ[2] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ (البقرة)

والذى حاجَّ إبراهيم فى ربه كافر منكر للألوهية ، ومع ذلك فإنه لم يأخذ الملْك بذاته ، بل الله جَلَّ جلالُه هو الذى آتاه الملْك .

إذن : الله تبارك وتعالى هو الذى استخلف بعض خَلْقه ، ومكَّنهم من مُلْك ظاهرىّ فى الأرض ، ومعنى ذلك أنه مُلْك ظاهر للناس فقط ، ولكنه مُلْك ليس نابعاً من ذاتية مَنْ يملك ، ولكنه نابع من أمر الله ، ولو كان نابعاً من ذاتية مَنْ يملك لبقى له ولم يُنْزع منه .

والملك الظاهر يُمتحنُ فيه العباد ، فيحاسبهم الله يوم القيامة :

كيف تصرَّفوا ؟ وماذا فعلوا ؟

هل سكتوا على الحاكم الظالم ؟ أو أنهم وقفوا مع الحق ضد الظلم؟

---

(١) التحاج : التخاصم. وحاجَّه محاجَّة وحجاجًا : نازعه الحجة. والحجة : الدليل والبرهان ، (لسان العرب ـ مادة : حجج)، وكان الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه هو ملك بابل « نمروذ بن كنعان » وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروج إبراهيم من النار ، ولم يكن قد اجتمع بالملك إلا فى ذلك اليوم . (انظر : تفسير ابن كثير ١/ ٣١٣).

(٢) البَهْت : الانقطاع والحيرة . رأى شيئًا فبهت : ينظر نظر المتعجب. وبهت الخصم : استولت عليه الحجة فانقطع وسكت متحيرًا . (لسان العرب ـ مادة : بهت) .

والله سبحانه وتعالى لا يمتحن الناس ليعلم المصْلح من المفسد ، ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم ، حتى لا يأتى واحد منهم يوم القيامة ويقول : يارب ، لو أنك أعطيتنى الملك لاتبعتُ طريق الحق وطبَّقتُ منهجك.

إذا قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة)

أى : الذى يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء .

وإذا قيل : « مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ » فتصرُّفه أعلى من المالك ، لأن المالك لا يتصرف إلا فى مُلْكه ، ولكن الملِك يتصرف فى مُلْكه ومُلْك غيره ، فيستطيع أن يُصدر قوانين بمصادرة أو تأميم ما يملكه غيره.

الذين يقرأون ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أثبتوا لله عز وجل أنه مالك هذا اليوم ، يتصرف فيه كما يشاء دون تدخُّل من أحد ولو ظاهراً.

والذين يقرأون «ملك» يقولون : إن الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم يقضى فى أمر خَلْقه حتى الذين ملَّكهم فى الدنيا ظاهراً ، ونحن نقول : عندما يأتى يوم القيامة لا مالك ولا مَلِك إلا الله.

الله تبارك وتعالى يريد أن يُطمئن عباده أنهم إذا كانوا قد ابتلوا بمالك أو ملك يطغى عليهم ، فيوم القيامة لا مالك ولا ملك إلا الله جل جلاله .

فالحقُّ سبحانه يُطمئن عباده ، أنهم إذا أصابهم ظلم فى الدنيا ، فإن هناك

يوماً لا ظلم فيه ، وهذا اليوم الأمر فيه لله وحده بدون أسباب ، فكل إنسان لو لم يدركه العدل والقصاص فى الدنيا فإن الآخرة تنتظره.

أما الذى اتبع منهج الله وقيّد حركته فى الحياة يخبره الله سبحانه وتعالى أن هناك يوماً سيأخذ فيه أجره ، وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة .. نعيم لا يفوتك ولا تفوته.

فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة)

قضية ضخمة من قضايا العقائد ، لأنها تعطينا أن البداية من الله ، والنهاية إلى الله جل جلاله ، وبما أننا جميعاً سنلقى الله ، فلا بُدَّ أن نعمل لهذا اليوم ، ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئاً فى حياته إلا وفى باله الله ، وأنه سيحاسبه يوم القيامة ، ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل ، وليس فى باله الله.

وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ(١) بِقِيعَةٍ(٢) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا

---

(١) السراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض الفضاء كأنه ماء وليس بماء ، وأما قوله تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (النبأ) أى : صارت لا حقيقة لها ، أى : تشبه السراب فى أنها لا حقيقة لها ، أو كالأرض المسطوحة التى يظهر فيها السراب .

(٢) القيعة : جمع القاع . والقاع ما انبسط من الأرض وفيه يكون السراب نصف النهار . والقاع الأرض الحرة الطين التى لا يخالطها رمل فيشرب ماءها ، والقاع : المكان المستوى الواسع فى وطاءة من الأرض يعلوه . (لسان العرب ـ مادة : قوع).

﴿ جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾

(النور)

وهكذا مَنْ يفعل شيئاً وليس فى باله الله فَسَيُفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذى لم يكن فى باله موجود ، وأنه جَلَّ جلاله هو الذى سيحاسبه.

وقوله تعالى :

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ (الفاتحة)

هو أساس الدين، لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء ، فما دام يعتقد أنه ليس هناك آخرة وليس هناك حساب ، فَمِمَّ يخاف ؟ ومن أجل مَنْ يقيد حركته فى الحياة ؟

إن الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ، ليحاسب المخطىء ويُثيب الطائع.

هذا هو الحكم فى كل تصرفاتنا الإيمانية ، فلو لم يكن هناك يوم نُحاسَب فيه .. فلماذا نصلى ؟ ولماذا نصوم ؟ ولماذا نتصدَّق؟

إن كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على أساس ذلك اليوم الذى لن يُفلتَ منه أحد ، والذى يجب علينا جميعاً أن نستعد له.

إن الله سبحانه وتعالى سَمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز

العظيم[1]، والذى يجعلنا نتحمَّل كل ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد ، ونُنفق أموالنا لنُعين الفقراء والمساكين.

كل هذا أساس أن هناك يوماً سنقف فيه بين يدى الله ، والله تبارك وتعالى سمَّاه يوم الدين ، لأنه اليومِ الذى سيحاسب فيه كل إنسان على دينه ، عمل به أم ضيَّعه؟

فمَنْ آمن واتبع الدين سيُكافأ بالخلود فى الجنة.

ومَنْ أنكر الدين وأنكر منهج الله سيُجازَى بالخلود فى النار.

ومن عدل الله سبحانه وتعالى أن هناك يوماً للحساب ؛ لأن بعض الناس الذين ظلموا وبَغَوْا فى الأرض ربَّما يُفلتون من عقاب الدنيا .

هل هؤلاء الذين أفلتوا فى الدنيا من العقاب سيفلتون من عدل الله فى الآخرة ؟

أبداً ، لن يُفلتوا ، بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود إلى عقاب خالد ، وأفلتُوا من العقاب بقدرة البشر فى الدنيا إلى عقاب بقدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ فى الآخرة.

ولذلك لا بُدَّ من وجود يوم يعيد الميزان ، فيُعاقَبُ فيه كل مَنْ أفسد فى

---

(١) يقول تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) ﴾ (المائدة).

الأرض وأفلت من العقاب ، بل إن الله سبحانه وتعالى قد يجعل إنساناً يُفلت من عقاب الدنيا ، فلا تعتقد أن هذا خَيْرٌ له ، إنه شَرٌّ له ؛ لأنه أفلت من عقاب محدود إلى عقاب أبدى .

والحمد الكبير لله بأنه «مالك يوم الدين» ، وهو وحده الذى سيقضى بين خَلْقه ، فالله سبحانه وتعالى يعامل خَلْقه جميعاً معاملة متساوية ، وأساس التقوى هو يوم الدين.

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لملوك الأرض من الذين طَغَوْا وعَلَوْا ، وكانوا من المسرفين ، فيقول عن فرعون :

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ(١) فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ(٢) (٨٣) ﴾ (يونس)

فرعون كان جَبَّاراً فى الأرض ، مُدَّعِياً للألوهية ، وقد علا فى الأرض عُلوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

حتى أن الحق سبحانه قال عنه :

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) ﴾ (الزخرف)

---

(١) العلو : التجبر والتكبر فى الأرض. ويُقَال : علا فلان فى الأرض إذا استكبر وطغى . ويُقال لكل متجبِّر : قد علا وتعظم . (لسان العرب ـ مادة : علو)

(٢) السرف والإسراف : مجاوزة القصد . وأسرف فى الكلام وفى القتل : أفرط . قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٩٧) : « ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ (يونس) أى : المجاوزين الحدّ فى الكفر ؛ لأنه كان عبدًا فادّعى الربوبية ».

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يُسخِّرون الناس فى كل الأعمال حتى استخراج الذهب ، سواء من المناجم ، أو من غَرْبلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها.

ولذلك قال موسىَ ـ عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٨٨) ﴾ (يونس)

والزينة هى الأمور الزائدة عن ضروريات الحياة ومُقوِّماتها الأولى ، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأىِّ غذاء يسدُّ الجوع ، وبالمشرب الذى يروى العطش.

فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتى من الأموال ، والرصيد الأصيل فى الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية.

وأنت إنْ نظرتَ إلى زينة الفراعنة تجد قناع «توت عنخ آمون» آية فى الجمال، وكذلك كانت قصورهم فى قمة الرفاهية.

ويكفى أن ترى الألوان التى صُنِعتْ منها دهانات الحوائط فى تلك الأيام، لتعرف دِقَّة الصنعة ومدى الترف ، الذى هو أكثر بكثير من الضرورات.

هذه الزينة ، وهذه الأموال ، وهذا الترف جعل فرعون عالياً فى الأرض ، مُفسِداً ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا[1] يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي[2] نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (القصص)

فرعون استعلى على رعيته ، وعلى مَنْ هم فوق الرعية من وزراء ومسئولين، ليس هذا فقط ، بل إنه علا حتى على ربه ، وأراد أن يكون إلهاً.

فانظر كيف وصل به طغيانه إلى هذا الحدِّ ؟

وما دام عنده هذه الصفات وهو بشر ، وله هوى فسيستخدمها فى إذلال رعيته ، فهو لم يَسْتعْلِ فى الأرض فقط ، بل إنه جعل أهلها شيعاً ، مع أن المفروض فى شرع الله أن الرعية كلها سواء ، فلا تستأثر طبقة بحظوة[3] عن طبقة أخرى ، لكن فرعون جعل أهلها شيعاً.

والشيعة طائفة لها استقلالها الخاص ، فهو جعلهم شِيَعاً ، وسلَّط بعضهم على بعض ، ومصر فى ذلك العصر كانت مسكونة بالجنس الأساسى فيها ،

---

(١) الشيع : جمع شيعة ، والشيعة : الفرقة . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴿٤﴾ ﴾ (القصص) أى : أصنافًا قد صرَّف كل صنف فيما يريد من أمور دولته. (انظر : لسان العرب ـ وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٩).

(٢) استحياء : استبقاء حيًا ولم يقتله ، أو أحب حياته وطلب له أن يعيش حيّاً . قال تعالى : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴿٤٩﴾ ﴾ (البقرة) أى : أنهم يقتلون الذكور فقط ، ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة .

(٣) الحُظوة والحِظوة والحِظَة : المكانة والمنزلة للرجل من ذى سلطان ونحوه . ويقال : حظيت المرأة عند زوجها تحظى حَظوة وحُظوة ، أى: سعدت ودنت من قلبه وأحبها . (لسان العرب ـ مادة : حظى).

وهم القبط ، وبعد ذلك فى أيام يوسف عليه السلام دخلها بنو إسرائيل وسكنوا فيها وتناسلوا ، وكان المفروض أنهم سيذوبون فى المجتمع القبطى .

الناس يفهمون أن كلمة قبطى معناها نصرانى ، وهذا خطأ لأن القبطى معناه المصرى القديم ، لكن عندما احتل الرومان مصر كانوا على دين المسيحية ، فدخل هذا الخطأ عند كثير من الناس أن القبطى هو المسيحى[1] .

ولكن ما هو السبب فى أن فرعون جعل طائفة تستعبد طائفة أخرى؟

قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة المستعمر الذى أزاح حكم الفراعنة وتولى الملك ، وهم ملوك الرعاة ، فالذى كان يخدم هؤلاء الملوك هم بنو إسرائيل ، فلما انقرض ملوك الرعاة نظر مَنْ جاء بعدهم إلى أنصارهم فاضطهدوهم ، لذلك اضطهد فرعون مصر بنى إسرائيل .

فمعنى هذا أن فرعون استعلى على الناس وجعلهم شيعاً ، تستبد شيعة من شيعه بشيعة أخرى ، فشيعة الأقباط استبدوا ببنى إسرائيل انتقاماً لما فعلوه من مساعدة للمستعمر الذى احتل مصر ، واستولى على الحكم فيها.

وساعة يُفرِّق فرعون بين الناس ويُقسِّمهم إلى شِيَعٍ متنافرة ، فهذا العمل منه ينفى أن يكون إلهاً ، لأن الإله يكون المخلوقون كلهم بالنسبة له سواء ، لكن الذى يحرض طائفة على أخرى ليس بإله.

---

(١) قال ابن منظور فى (لسان العرب ـ مادة : قبط) فى معنى كلمة قبط : « القبط . جيل بمصر. وقيل : هم أهل مصر وبنكها (أى : أصلها) والقُبطية : ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر»

ففرعون كان يستضعف[1] طائفة من رعيته وهم اليهود ؛ لتعاونهم مع ملوك الرعاة الذين غَزَوْا مصر.

وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل فى تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ، وهو بهذا العمل وغيره كان من المفسدين.

والإفساد أن تأتى إلى صالح فى ذاته فتفسده ، فكَوْنُ فرعون يقتل الذكور من أطفال بنى إسرائيل ويستحى النساء ، فهذا فساد كبير، لماذا؟

لأن هناك شيئاً اسمه استبقاء الحياة ، وآخر اسمه استبقاء النوع ، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع ، وهو يقتل الأولاد خشية أن يناله منهم شر ، لكن النساء يستبقيهن للخدمة والإذلال ، لأنهن ليس لهن شوكة ، ولا خطر منهن على مُلْكه.

إذن : فرعون كان مستعلياً ومفسداً فى الأرض ، وفرّق أهلها شيعاً، ويستضعف طائفة منهم ويُنكِّل[2] بهم ، والله سبحانه وتعالى أرسل له رسولاً

---

(١) الضَّعْف والضُّعْف : خلاف القوة . واستضعفه وتضعَّفه : وجده ضعيفًا فركبه بسوء . (لسان العرب ـ مادة : ضعف) ، قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٧٩) : « كان يستعملهم فى أخسِّ الأعمال ، ويكدهم ليلاً ونهارًا فى أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحى نساءهم إهانة لهم واحتقارًا وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوَّف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه ».

(٢) نكَّل به تنكيلاً إذا جعله نكالاً وعبرة لغيره ، فعاقبه عقابًا أليمًا . والنكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة . (لسان العرب ـ مادة : نكل).

ليعدل سلوكه ، ويُحسِّن الأمور ، ويأخذ بيد المستضعفين ، ولو أن المسلط على المستضعفين لم يَسْتَعْلِ ، ولم يتأبَّ على طاعة الرسول ، وانقاد للحق ، كانوا يعيشون كرعية مع بعضهم البعض ، دون تفرقة.

وعندما يقولون : إن الثوريين حين يأتون للانتقام من مفسد وأعوانه ، هم جاءوا لينتقموا من هؤلاء المفسدين وينصفوا المظلومين ، فكان يجب أن تمنع المفسد من الإفساد ، لأن مَنْعَك له من الفساد فيه اعتدال الكون.

وبعد أن تقضى على الفساد لا تفضل فئة على فئة فى المعاملة والقُرْب ، ولكن اعدل بين الجميع ، وبذلك تأمن غضبهم أو حقدهم عليك.

لأن الحقد يأتى من تقريبك لجماعة أو طائفة وإبعادك لأخرى ، لكن المفروض أنك بعد أن أبطلت الفساد ، بأن منعت المفسد أن يفسد فهذا إصلاح ، ثم تأخذهم جميعاً فى كنفك[1] ورعايتك وتحتضنهم ، حتى تأمن حدوث الثورة المضادة.

ففرعون جعل الأمة الواحدة طوائف ، لأنه لا يريد أن تستقر بينهم الأمور ، لأنه إن استقرت بينهم الأمور ربما تفرغوا إلى شىء ضده ، فيشغلهم بأنفسهم حتى يظل هو مطلوباً من كل واحد منهم.

---

(١) كنف الرجل يكنفه واكتنفه : جعله فى كنفه ، أى : جعله فى ناحيته وجانبه وحفظه وكلاءته . (لسان العرب ـ مادة : كلأ).

والله سبحانه وتعالى شاء ألا تدوم هذه الحال ، لأنه لن يُفلح ظَلُوم ، ولا يموت ظَلُوم فى الكون حتى ينتقم منه ، ويرى من ظلمه آثار هذا الظلم الذى كان منه أولاً.

قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ[1] وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (الأعراف)

فالحق سبحانه أخذ قوم فرعون بالسنين ونقص الثمرات لينفض أيديهم من أسبابها ، فإذا نفضت اليد من الأسباب لم يَبْقَ إلا أن يلتفتوا إلى المسبب ، ويقولون «يارب» .

إذن : فالإنسان يذكر المسبِّب حين تمتنع عنه الأسباب ، لأنها مقدمات الحياة ، فإذا امتنعتْ مقوِّماتُ الحياة يقول الإنسان : يارب ، وهكذا كان ابتلاء الله لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات ؛ ليذكروا خالقهم.

ويتتابع العذاب عليهم بكفرهم :

---

(١) السنون : جمع سنة . وقد يقصد بها : الجدب والقحط والشدة . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٣٩) : « هى سنى الجوع بسبب قلة الزروع ». ونقل السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥١٨) أن عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبا الشيخ أخرجوا عن قتادة فى قوله ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ...﴿١٣٠﴾ ﴾ (الأعراف) .قال : أخذهم الله بالسنين بالجوع عامًا فعامًا ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ.. ﴿١٣٠﴾ ﴾ (الأعراف) فأما السنون فكان ذلك فى باديتهم وأهل مواشيهم ، وأما نقص من الثمرات فكان فى أمصارهم وقراهم .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ[1] وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ[2] لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ[3] (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ[4] بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ (الأعراف)

ثم يأتى بعد ذلك القول الذى يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾ (الأعراف)

ويقول الحق سبحانه تأكيداً لذلك :

---

(١) القمل : صغار الذر والدَّبى ، وقيل : هو الدَّبى الذى لا أجنحة له . وقال ابن الأنبارى : قال عكرمة فى هذه الآية : القُمَّل الجنادب وهى الصغار من الجراد . وقال ابن السكيت : القُمَّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضَّة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سُنبل له . (لسان العرب ـ مادة : قمل).

(٢) الرجز فى القرآن هو العذاب المقَلْقِل لشدته . وله قلقلة شديدة متتابعة . والرُّجز : القذر مثل الرجس ، والرُّجز : عبادة الأوثان والشرك . (لسان العرب ـ مادة : رجز).

(٣) النَّكْث : نقْض ما تعقده وتصلحه من بيعة وغيرها . وتناكث القوم عهودهم : نقضوها . والنكْث : نقْض العهد بعد إحكامه كما تُنكث خيوط الصوف المغزول بعد إبرامه . (لسان العرب ـ مادة : نكث).

(٤) يقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملْحًا زُعَاقًا ، وعلى النهر الكبير العَذْب الماء ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي.. (٧) ﴾ (القصص) . (انظر لسان العرب ـ مادة : يم).

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ (الأعراف)

فَتَمَّ وَعْد الله الصادق بالتمكين لبنى إسرائيل فى الأرض ، ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملتْ النعمة ، لأن الله أهلك عدوهم وأورثهم الأرض.

فأهلك الله آل فرعون ، وأغرقهم فى اليمِّ ، ذلك فى الدنيا ، أما عذابه فى البرزخ ويوم القيامة ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ ... وَحَاقَ[1] بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ (غافر)

ويقول فى آية أخرى عن فرعون أنه :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ[2] النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾

(هود)

---

(١) حاق به الشىء يحيق حَيْقًا : نزل به وأحاط به ، وقيل : حاق بهم العذاب أى : أحاط بهم ونزل كأنه وجب عليهم . وقال الزجاج فى قوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) ﴾ (النحل) أى : أحاط بهم العذاب الذى هو جزاء ما كانوا يستهزئون . (لسان العرب ـ مادة : حيق).

(٢) أوردهم النار : أدخلهم النار . وأصل الورود : حضور المكان والإشراف عليه ، دخله أو لم يدخله . يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ (مريم) أى : بالغ النار وواصل إليها، فمنهم من يردها ليدخلها ، ومنهم من لا يدخلها ويكون وصوله إليها ورؤيتها ليدرك مقدار نعمة الله عليه بالنجاة منها .

فهم جميعاً يتقدمون فى اتجاه واحد ، فى اتجاه النار ، ومَنْ يقودهم يتقدمهم ، ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملأ ، والقوم اتبعوا الملأ وفرعون ، ومادامو قد اتبعوه فى الأولى ، فلا بد أن يتبعوه فى الآخرة .

فالكفار ومعبوداتهم سيردُون النار يوم القيامة وُرود إذاقةٍ وعذاب فيها ، وليس وُروداً كوُرودِ المؤمنين لها ، الذين سيرونْها دون أن تمسَّهم بسوء.

إذن : الكفار سيدخلون النارَ مع آلهتهم التى عبدوها من دون الله ، وحينئذ سيتأكدون أن هؤلاء ليسوا آلهة ؛ لأنهم لو كانوا آلهة بحق لما دخلوا جهنم.

قال تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) ﴾ (الأنبياء)

فالحقُّ سبحانه يُدخِلُ آلهتهم النارَ معهم حتى يكونوا عبرة لمن عبدوهم، ولذلك يقول ربنا عن فرعون الذى ادَّعَى الألوهية ، وأمر الناس أن يعبدوه :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ (هود)

فهو الذى يتقدمهم ، ويقودهم إلى النار يوم القيامة ، والحكمة من ذلك أن الكفار لو دخلوا النار وحدهم لكان عندهم أمل أن آلهتهم ستأتى لِتُخلِّصهم من العذاب.

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُدخِل معهم آلهتهم حتى ينقطع أملهم فى النجاة ، وتكون حسرتهم أشد ، ويعلمون أن هؤلاء ليسوا آلهة ، فلو كانوا آلهة ما دخلوا النار وخُلدوا فيها.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[1] ﴿٨٣﴾ ﴾

(النمل)

الفوج هو الدفعة ، ولكن هذا الفوج هل يأخذه من العامة ، أم من عتاولة المكذبين؟

هذا الفوج يكون من عتاولة المكذبين والكافرين ، من كل أمة يُحشر أكابر مُجرميها فى فوج واحد ، حتى يُرى زعماء الضلال وفتوات الكفر فى هذا الهوان والعذاب.

لذلك حَقَّ لله سبحانه أن ينادى يوم القيامة :

« أنا الملك .. أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ »

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« افتخرت الجنة والنار ، فقالت النار : يارب يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف[2]. وقالت الجنة :أى ربِّ ، يدخُلنى الضعفاء والفقراء

---

(١) يوزعون : أى يُحبس أولهم على آخرهم . وقيل : يُكفُّون . قال ابن عباس : يُدفعون . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يُساقون . (ابن كثير ٣/ ٣٧٦ ، ولسان العرب ـ مادة : وزع).

(٢) المقصود بهم أعيان القوم والكبار فيهم الذين لهم من الحسب والمجد ما يجعلهم يتعالون على الناس بآبائهم وأحسابهم وأنسابهم .

والمساكين ، فيقول الله تبارك وتعالى للنار: أنتِ عذابىٰ أصيب بك مَنْ أشاء. وقال للجنة : أنت رحمتى وسعتْ كل شىء ، ولكل واحدة منكما مِلْؤُها»[1] .

***

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ١٣ ، ٧٨) ، وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٢٣٣). قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ١١٢) : « رجال أحمد ثقات لأن حماد بن سلمة روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط » .

obeikan.com